

# بسام حجار... في الحضور كما في الغياب

# أعماله الكاملة صدرت في بيروت الشعر تجربةً كيانيةً وفلسفة حياة



**محمد ناصر الدين**

«لكن السر هو ما يصنع السائر/ بين افراق الصفا/ و‏ولائه/ الشجار التي تفضحت هو السه/ ومالت شاكية/ على الرصيف، والحدائق المتحللية، (بسام حجار – اليوم المائله)

مع بسام حجار (1 كانون الثاني/يناير 1955 – 17 شباط/ فبراير 2009)، لم يكن الشعر مهنة أو فنًا، فبمكّنتنا بذلك أن نُنصب ميرزانا للمفاضلة بينه وباقي المهن والفنون، بل تحول إلى ما يصفه روبرتو خواروث بالـ «مهنة الأساسية». فالقصيدة هنا تهرب من كل تعريف تقني ممكن إلى نوع من الكشف، شيء ما يضئ للإنسان ما في داخله، أو ذلك «السبر» الذي يصنع الطريق على رأي أنطونيو ماتشادو. شعر بسام حجار ليس بالزخرفة أو بالأحاجي اللغوية أو بالاستنثاق، بل هو أقرب إلى المعنى اليوناني للكلمة الذي يقرّنه بالفعل أو التحقق. الفعل هنا ليس بكتابة معينة في عالم يطوف بالمشكوب، بل هو التماثل مع الحياة ذاتها، مع الكائن الأساسي في داخله الذي يعطي للشعر روحًا تجعله أسمي من كل مفايسة وأعلى من كل مفهوم، إلى ذلك الجوهر الفريد الذي يستحق اسم المطلق.

شأبة بسام شعره، فكان كما يصفه صديقه عباس بيضون «وكان القصيدة تحت لسانه». ليكون الشعر معه تجربة كيان ووجود. إنها تلك التجربة التي يصوغها الفرد مع أناته الأكثر حميمية، مع البيت والرواق (عندما أتى المساء والوقت والغرفة الباردة/ كان الرواق الصديق/ وجلس أصامي يدخن غليونه الكبير/ لم أقل شيئًا/ كانت الجدران تحدث نفسها/ عن التعب والوقت والغرفة الباردة/ كان الرواق يتباحث من فمه المربع، أو محبطه الأقرب الذي تجده في قصائده لمرؤى إنسته أو لرينييه ونجال. إذ لم يعرف بسام ككائن اجتماعي، وإن لم ينقصه الكرم وحسن الضيافة. الشعر عند بسام هو هذا النضج الداخلي الحيوي الذي يجد بهجته أو حسرتة في اللغة، أو هو كما رئاه

### كلمات

### كلمات

## سيرته في سطور

في ذلك اليوم من شهر شباط (فبراير) قبل عشرة أعوام، رحل بسام حجار الذي كان يعيش تقريباً متوارياً عن الأنظار. قلة قليلة كانت تعرف بسام خارج كتبه وأمكنته عمله القليلة أيضاً، وهو المولد في صور في الجنوب اللبناني عام 1955. والحاصل على الإجازة التعليمية من الجامعة اللبنانية ليتابع دراسته في «السوربون» الباريسية مستحصلاً على دبلوم في الدراسات العليا في الاختصاص ذاته. عمل في الصحافة، فكتب لـ «النهار» (1979-1982) و«النهار» التي كان أحد مؤسسي ملحقا الثقافي. غادرها بعد غياب كيميائ، مع أحد المسؤولين عن الملحق، فانتقل إلى «السفير» ليستقر أخيراً عام 1999 كمحرر وأحد أهم أعمدة ملحق «نوافذ» الذي كان يشرف عليه الروائي حسن داود. وهو الملحق الثقافي الأسبوعي لجريدة «المستقبل». هذه القلة التي عرفت بسام كانت تعي تماماً أنها فقدت شاعراً من قماشه نادرة، وأن الشعر العربي الحديث سينتظر طويلاً ليحظى بشاعر من معدن بسام وفرائده.

في المرحلة الأولى، خصوصاً من شعره، التي ظهرت في أعمال مثل «مشاغل رجل هادئ جداً» (1980) و«لأروي كمن يخاف أن يرى» (1985) و«فقط لو يدك» (1990) التي خاطب فيها أشياء«ه الحميمة مثل باب الغرفة مبشراً إياه بأنه «سبحيا من بعده». كانت لديه القدرة أن يجبس الكون في غرفته، ويستحضر الحياة إلى أشياء، وكأنها تتأخذ معه مقام الأيقونات. في هذه المرحلة الأولى، كان بسام مثل النحات الإيطالي جيياكوميتي. لا يتعب من الرجوع إلى الأشياء، نفسها، ليجعلها في كل مرة تتشابه مع زراتها، لكن بتغييرات نيمائية، وهي الأشياء، الذي يدين لها وتدوين له في الوجود والذاكرة. أعمال المرحلة الثانية مثل

كان ذلك الزوضوح كان يذفء النص لنعي صاحبه استدعاء الموت الذي أكثر ما تجده في المرحلة الثالثة والأخيرة في أعمال مثل «اليوم العائلة» (2003) و«تفسير الرخام» (2006). وقد صدرت أخيراً في بيروت عن «دار الرافدين» و«منشورات تكوين» الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر اللبناني الراحل بواقع مجلدين من القطع المتوسط وإعداد وتقديم الشاعر علي محمود خضير.

وعمقاً من دون فقاعات، وتأملاً من غير صخب. ثقافة بسام أكثر ما تجدت في مقالاته الصحافية في «النهار» و«السفير» و«المستقبل»، وفي نصوصه النظرية من «صحبة الظلال» (1992) الذي خلق فيه أفقاً يستلهم فيه لوتريامون وفوكنر ولوي فيريديناند سيلين وموريس بلانشو وغيرهم من اعلام الأدب والفكر في الغرب، ليستكمل في «معجم الأشواق» (1994) حطريات نظرية في اللغة والمعنى، تتكئ على النثران من الأناجيل إلى ابن عربي في «ترجمان الأشواق» ومجنون بني عامر وابن الفارض وابن حزم الأندلسي، وكذلك في «كتاب الرمل»

بالفلسفة لن يفكر مرتين قبل أن يحزمر مختارات بسام حجار في المختارين؛ وظيفة اللغة في الروح، ما لا يعرفه كثيرون، أنه في الترجمة، اكمل طريق الشعر. مرأة واحدة. وما يقوله عن رامبو بدءاه ينسحب عليه: «رامبو سيبرتان. الأولى حين توقف عن الشعر». وليس لرجل عابر ما يقوله، ما لديه هو سعي متمار وراء خيانة الشعر بنثر الحياة. مما لا شك فيه، أنه عندما مدح حجار خيانة النثر للشعر كان في مزاج جيد. لقد صدر «مدبح الخيانة» في 1997. وكان مديحاً لانقاً بالحنقني بـ، وبصاحب المديح وصاحبها، الشاعر والمترجم، ومن باب المديح أيضاً، يوضع الشاعر قبل المترجم في مقامات الوصف. غير

أن الذات واحدة، وأن صاحبها ضدّ التبوير الواقع. بالنسبة لكثيرين كان هذا الكتاب مقدمة ضرورية من بسام حجار. لما هو آت، فهذا الكتاب صدر قبل عقد بالضبط من صدور «الوقت لا ينقضي»، ومن غيره «شمس آل سكورتا» بالعربية، وغيرها من الكتب التي ترجمها حجار. لكن في الواقع «مدبح الخيانة» يأتي في السياق نفسه، ويمكن اعتباره هوامش ارتأى كاتبها أن توضع في مكانها. لطالما رفض بسام حجار أن يكون «مادة للتحليل» أو أن يأخذ إذناً من أحد... لكي ينظر في المرأة. مع ذلك، قد تجد مقالاً اعتبره صاحبه مقالاً «تحليلياً»، أخذ يحلل شخصيات الروايات التي ترجمها بسام حجار، وراح

في الكون مثل بسام حجار، ينظرون وينتظرون، ينتظرون إلى الكائنات والأشياء وكل ما هو في دائرة الإنساني تقترب منا لتأخذ أشكالها وتستجدي أسماءها، وينتظرون لأن من هم مثل بسام بكتفون أولاً بالمشاهدة من دون أن يأخذوا أو أن يطلبوا السلوى، من دون أن يطلبوا أي شيء، بنوع من الحضور الشفاف في الكون (أقرأ البياض على ورق دافئ كالضريح/ استمهل الضريح/ أقرأ تعب النهارات في الصحف اليومية/ استمهل الضريح/ وأعلم كم هو مربع/ أن تسرح الأحلام العالقة بشعرك وأسنانك/ وأن تزجر غراب عينيك)، وعندها سيفتح شيء في هذا الكون مثل زهرة اللوز. بعدها، يقوم المتأملون كل على حدة بالفعل الذي يتوجب عليهم فعله، بالطريقة الأسهل، فاصدق الختان هي أرغفته المهوجة، وأرغفة بسام هي قصائده من «مشاغل رجل هادئ جداً»، و«فقط لو يدك»، و«مهن القسوة» و«مجرد تعب» وإلى علاقات بسام الذي بقي منطوياً إلى حد ما، وإلى حد أصوات كثيرة وينحسر الموج، سيناط النمام عن جواهر قليلة في قعر الجرة المقدسة، وسيكون بسام حجار إحدى هذه الجواهر». بسام الذي تخبأ في «تفسير الرخام» (2006) برحيله المنكر (فلم يبق ما اصنعه/ برجاني/ وبالشهوات التي تبقت/ لم يبق ما صنعه بمتسع اليوم/ كل يوم/ بالبحور الأحمق/ لعابرين في أوقات شاعرة)، ها هي النبوءة تتحقق حول الجواهر القليلة في قعر الجرة المقدسة: جبل جديد من الشعراء والشاعرات يضيئون شموعاً حول أعمال بسام حجار المخترقة عن «دار الآداب» أو «المركز الثقافي العربي»، أو الأعمال الشعرية الكاملة الصادرة أخيراً في مجلدين كاملين عن «دار الرافدين» و«منشورات تكوين» (2018)... «يد الغائب التي تدل على الغياب» أضحت عند بسام حجار تدل على كل من أراد أن ينخُد من الشعر بطريقة للعيش شعرياً في العالم، في الحضور كما في الغياب.

سبناط النمام عن جواهر قليلة في قعر الجرة المقدسة، وسيكون بسام حجار إحدى هذه الجواهر». بسام الذي تخبأ في «تفسير الرخام» (2006) برحيله المنكر (فلم يبق ما اصنعه/ برجاني/ وبالشهوات التي تبقت/ لم يبق ما صنعه بمتسع اليوم/ كل يوم/ بالبحور الأحمق/ لعابرين في أوقات شاعرة)، ها هي النبوءة تتحقق حول الجواهر القليلة في قعر الجرة المقدسة: جبل جديد من الشعراء والشاعرات يضيئون شموعاً حول أعمال بسام حجار المخترقة عن «دار الآداب» أو «المركز الثقافي العربي»، أو الأعمال الشعرية الكاملة الصادرة أخيراً في مجلدين كاملين عن «دار الرافدين» و«منشورات تكوين» (2018)... «يد الغائب التي تدل على الغياب» أضحت عند بسام حجار تدل على كل من أراد أن ينخُد من الشعر بطريقة للعيش شعرياً في العالم، في الحضور كما في الغياب.

يفكر لماذا ترجم هذه الرواية أو تلك. ذلك الإمعان في الدخول إلى عالم الرجل الذي أراد طوال حياته أن ندع مرأته وشأنها. بسام حجار الشاعر هو المترجم. وقد ترجم نفسه أولاً بالثبعر، ثم انصرف لترجمة الآخرين. وهذا ما نعرفه جميعاً. لكن الإنصاف يقتضي قراءة السيرتين بتآن، تجربته في الترجمة نضجت مثل تجربته في الشعر. ببوغرافيا الجوع وجبل الروح وأزامير الخراب كتنصوت استوت على مهل وتختلف عن سيرة مارلين مونرو وعن ترجمته لسانلجر أو كافينيو. وليس من السهل أن يكون للمرء سيرتان، متوازيتان، كالرجل وظلّه، كالعابر إلى الصمت.

### بطاقة لشخص واحد

**عباس بيضون\***

قد يكون بسام حجار أقرب الأصدقاء إليّ. وقد يكون بين أقرب مكان. كان يكتب وكأنّ القصيدة تحت لسانه وفي كُله، ولا يحتاج إلى أن يحرك كلماتها لتسقط على قلمه. الكلمات كانت كالأشياء، تحت ناظره وفي داخله. بسام كان أيضاً، كما يعلم الجميع، أفضل المترجمين. كان أيضاً مثقفاً كبيراً حين تحول الثقافة إلى غضب وإلى مزاج وإلى علاقات. بسام الذي بقي منطوياً إلى حد ما، وإلى حد ما «رهين الحَبَسَين»، كما أطلق المعري على نفسه. محبسا بسام كانا بين مكتبه وعمله. كان القارئ والكاتب والمفكر ليل نهار، وكان أيضاً الصديق القريب والمضيف الدائم ليل نهار.

يسرني أن تلتقت إلى بسام جريدة، بل يسرني كثيراً أن أعلم أن بسام الشاعر والمثقف والكاتب يزداد في وقته، ويقدر هذا الغياب ومعه انتشار اسم وانتشار أثر، يزداد حضوراً وتأثيراً بحيث أن الأجيال الجديدة والشعراء الجدد يمتدّون إليه أكثر مما يمتدّون إلى الأجيال والسابقين. ذلك أمر يدل على يقظة وعلى متابعة وعلى عدالة وانتباه. إنه أمر لا بدّ سيرزاد.

القصائد التي قرأتها في زمن ما وهي على الورق، متداولة اليوم بين الشعراء الشباب الذين يجدون فيه رائداً ومُلهمًا.

فقد بسام تمّ في فترة يكثر فيها المفتقدون. لقد خُسِرْتُ في أونة قصيرة إلى جانب بسام مي غصوب وجوزيف سماحة، واليوم وأنا لا أزال في حداد على أختي. أجد المفقّد متصلاً وقد لا تكفي هذه العجالة لأثر في هذا الخطر، إلاّ إنني أذكر المهتمين بأنني كتبت عن بسام وعن صداقتنا ديواناً كاملاً أو «بطاقة لشخصين» وأنا أعيد إهداء لذكراه في هذا الملف.

**\* شاعر وروائي لبناني**